# ٥٨ أبو العباس المرسى ابن مرسية بالأندلس

كانت أصول طريقته مستمدة من تعاليم أستاذه أبى الحسن الشاذلى. وهى: تقوى الله عز وجل فى السر والعلانية، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى الإدبار والإقبال، والرضا بما قسم الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء.

وكان كأستاذه أيضاً (أبى الحسن الشاذلى) يدعو اتباعه إلى السعى للرزق وإلى العمل، وكان يكره من المريد لطريقته التعطل وسؤال الناس. وكثيراً ما حث أتباعه على الأخذ بأسباب العمل ـ أياً كان العمل ـ بشرط أن يكون شريفاً.

وكان هو بالنسبة لأستاذه (أبى الحسن الشاذلى) كالشيخ الإمام محمد عبده إلى السيد جمال الدين الأفغانى.. وأبو العباس المرسى تلميذ لأبى الحسن الشاذلى وصفيّه، وصديقه، بل أكثر من ذلك صهر له، حيث تزوج ابنة أستاذه الشاذلى رضى الله عنهم جميعاً.

ذلك هو القطب الصالح أبو العباس المرسى، الذى أوصى أستاذه أبو الحسن الشاذلى أتباعه به قبل أن يموت ـ لما رأى منه من تقوى وصلاح وحب للخير ـ قائلا: «عند مماتى عليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى».

وأبو العباس المرسى من أسرة عربية ضاربة الجذور فى العروبة برغم أنه ولد فى عام ٦١٦ هـ بمدينة مُرْسِيَة إحدى مدن «بلنسية» بالأندلس حيث ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة كبير الأنصار وسيد الخزرج من ناحية. وقيس بن سعد الذى عُين والياً على مصر من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى

الله عنه.. ولأنه وُلد ونشأ فى «مرسية» بالأندلس فقد غلبت عليه تسميته بأبى العباس المرسى، فعُرف فى كثير من الكتابات باسم شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى. غير أن هذا الاسم يختصر إلى أبى العباس المرسى، وهو ما اشتهر به بعد ذلك حين انتقل من مسقط رأسه «مرسية» بالأندلس إلى غيرها من البلاد، وآخرها مصر، حيث كانت وفاته بها عام ٦٨٥ هـ بعد حياة امتدت إلى تسع وستين عاماً.

أما كيف انتقل من بلده «مرسية» إلى مصر والإسكندرية ليدفن فيها، وليكون له أتباع ومريدون فإن لذلك قصة ـ يمكن تبيين بعض خيوطها من المادة المفيدة عن هذه الشخصية الصوفية التى كتبها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال.

تبدأ خيوط هذه القصة حيث كان أبوه عمر بن على يعمل تاجرًا، وتبعاً لتقاليد التجار وقتئذ كان هذا الأب يريد أن يعد أولاده لاحتراف التجارة من بعده، حفاظاً على أمواله واسمه بين التجار ولما استكمل أبو العباس المرسى تعليمه ألحقه أبوه بأخيه، وأصبح الأب يعتمد على ولديه فى إدارة تجارته والإشراف على شئونها.

وطبيعى أن يكتسب هذا الفتى الذى أصبح شاباً تجارب من دنيا التجارة، حيث تفرض على العاملين بها أن يتصلوا بمختلف البيئات والطبقات، مما يتيح للتاجر فرصة التعرف عن قرب بأخلاق الناس وطباعهم.

ويستمر على هذه الحالة مثابراً على عمله فى التجارة، وفى الوقت نفسه مطلعاً على ما يتيسر له من علوم عصره، حتى يبلغ الرابعة والعشرين، ويصبح مكلفاً، ويصطحبه والده مع بقية الأسرة (أمه وأخيه الأكبر) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

كان من الصعب على هذه الأسرة أن تسلك فى هذه الرحلة الطويلة من مرسية بالأندلس إلى مكة والمدينة بالحجاز طريق البر. عندئذ آثرت أن تسلك طريق البحر، لتستقل سفينة تبحر بهم بحذاء الشاطئ الإفريقى.. ولكنها لم تكد تمضى أياماً حتى هبت عليها عاصفة شديدة، راح بسببها كل مَنْ كان على السفينة بما فيهم الأب والأم، ولم ينج منهم سوى أبى العباس المرسى وأخيه الأكبر، حيث قُدر

لهما النجاة، ووصلا إلى البر سالمين، ليتخذا طريقهما إلى المشرق، إلى أن وصلا إلى تونس. وفيها آثرا الإقامة بها الأخ الأكبر، واتجه إلى مهنته القديمة، وأما الأخ الأصغر أبو العباس المرسى فقد أراد أن يفيد غيره مما حصل من معارف وعلوم، فأتخذ لذلك داراً متواضعة، فيها قام بتعليم الصغار والصبية القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم وتفسيره.

وفى تونس يلتقى أبو العباس المرسى بشيخه وأستاذه أبى الحسن الشاذلى، الذى كان قد سمع بعلمه وفضله وتقواه، فسعى لمقابلته والجلوس إليه، والتعلم منه. ويلازمه ملازمة ظله. حتى إذا عزم أبوالحسن الشاذلى مغادرة تونس متجها إلى مصر كان أبو العباس المرسى فى صحبته، حتى وصل معه إلى الإسكندرية. وفى هذا يقول أبو العباس المرسى: «كنت مع الشيخ فى السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذنى ضيق شديد، حتى ضعفت عن حمله، فأتيتُ إلى الشيخ أبى الحسن، فلما أحس بى قال لى: آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ثم نزل به الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلِّفه، حيث يقول :(إنى جاعل فى الأرض خليفة) ما قال فى السماء ولا فى الجنة، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف. فأنزله سبحانه وتعالى إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضاً لك قسط من آدم، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف، فأنزلت إلى الأرض لتعبد الله بالتكليف، فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة الله فى أرضه..». وعلق أبو العباس المرسى على ذلك قائلا: «فما انتهى الشيخ أبو الحسن من هذه العبارة حتى شرح الله صدرى وأذهب عنى ما كانت أجده من الضيق والوسواس».

وعن أبى الحسن الشاذلى تلقن أبو العباس المرسى كيفية الجمع بين الفقه والتصوف، وهو ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس التصوف التى تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد، والزهد والعبادة، ولا تستلزم فى كثير من الأحيان المعرفة بالعلوم الظاهرة ـ لقد أتقن أبو العباس المرسى العلوم الدينية

إتقاناً تاماً. حتى كان مَنْ يتحدث إليه فى علم منها ينصرف عنه مدركاً بأنه لا يحسن إلا هذا العلم. وقد عاونه على طلب العلم والتبحر فيه كتبٌ كثيرة فى التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف اطلَّع عليها، حتى عُرِفَ بين معاصريه بالتبحر والنبوغ فى العلوم الإسلامية، مع تخصصه ونبوغه فى علوم الحقيقة وأصول الطريقة، حتى كان يقول: «شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه».

ولما تقدمت السن بأبى الحسن الشاذلى وفقد بصره، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شئون أتباعه رأى أن يستخلف تليمذه وصفيه وزوج ابنته أبا العباس المرسى على إدارة شئون دعوته، فأعلن استخلافه له فى حفل جامع بين أتباعه فى مسجد العطارين بالإسكندرية ـ وقد اضطلع بالقيام بهذه المهمة خير قيام، فكان يشرف على أتباع الطريقة، ويلقنهم الدروس، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم، ملازماً لشيخه وأستاذه أبى الحسن الشاذلى. حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ هـ عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج إلى الحج ومعه نخبة من أتباعه يتقدمهم أبو العباس المرسى. وفى الطريق مرض الشيخ مرضاً شديداً لم يملهله طويلا حتى مات قبل أن يدخل الأراضى المقدسة، ليدفنه تلميذه أبو الحسن، ويستأنف رحلة الحج التى من بعدها يعود إلى الإسكندرية، ويتخذ مجلس أستاذه وشيخه الراحل، فيشيع ذكره، ويشتهر أمره، ويقصده الناس من كل مكان يسألونه المعرفة، ويلتمسون منه البركة.

وهكذا أصبح معلوماً لدى الأتباع والمريدين أن أبا العباس المرسى يتسم بعدة صفات، منها عبادة الله كأنه يراه. وكراهية التكلف والتظاهر بالزهد والمسكنة، والادعاء والرياء ـ ومن هذه الصفات أيضاً عزة النفس، والتعفف عمَّا بأيدى الناس، والثقة كل الثقة بالله عز وجل، حتى أنه كان يقول لأتباعه: «والله ما رأيت العزة إلا فى رفع الهمة عن الخلق. وما رأيت السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين». ولهذا كان لا يسعى إلى مقابلة سلطان أو أمير. ولايرجو من أى منهما توسطاً أو شفاعةأو حتى إنه إذا جاءه أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام فى حاجة له، يقول له أبو العباس المرسى: «أنا أطلب لك ذلك من الله..».

حضر إليه يوماً لزيارته الأمير علم الدين سنجر. وهو مدير السلطنة، وصاحب الحول والطول فى عهد السلطان قلاوون، فما طلب منه أبو العباس المرسى شيئاً، حتى إذا قال له أحد أتباعه: يا سيدى اطلب من هذا الأمير أرضاً يزرعها أصحابك. فرفض رفضا باتاً، وكان يردد دائماً: «اللهم أغننا عنهم، ولا تغننا بهم، إنك على كل شئ قدير». وأقام أبو العباس فى الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة، حتى توفى، لم يحاول خلالها أن يزور والى المدينة أو أن يقصده فى طلب أو شفاعة، فى الوقت الذى كان الوالى يلح فى طلب لقائه والتحدث إليه، وكان دائم الرفض والامتناع عن لقائه وبقى على هذه الحال من الزهد والتقشف، والإباء والتعفف، حتى توفى بالإسكندرية عام ٦٨٥ هـ تاركاً بعده عدداً من التلاميذ الأفذاذ الذين يتقدمهم ابن عطاء الله السكندرى والبوصيرى وابن الحاجب وياقوت القرشى.

* * *